القيمة التاريخية لكتب الرحلات

رحلة ابن جبير والطهطاوي أنموذجا

الطالبة الدكتورالية فتيحة حاج بن فطيمة، جامعة يحي فارس المدية، الجزائر

الملخص :

إن ميدان الدراسات التاريخية ميدان واسع يتطلب العديد من العلوم والمعارف المساعدة والتي من شأنها أن تزود الباحث بمعطيات كثيرة ، وفي هذا الإطار يعد أدب الرحلات مصدرا مهما لا يمكن الإستغناء عنه في الدراسات التاريخية ، فرغم كونه فرعا من فروع الكتابة الأدبية خاصة وأنه يضم الرواية والقصة والسرد إلا أنه ذا قيمة علمية كبيرة خاصة وأن كتابات الرحالة قد استندت على المشاهدة و الملاحظة المباشرة ، وقد احتوت في مضامينها على الكثير من المعطيات التاريخية والجغرافية التي أغفلتها المصادر والمراجع الأخرى ، فأدب الرحلات قد أماط اللثام وكشف جوانب مهمة عن واقع الكثير من الشعوب والمجتمعات .

ومن هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة لتركز على القيمة التاريخية لكتب الرحلات ودورها في إثراء المعرفة التاريخية بحيث سوف نتتبع نشأة ومراحل تطور أدب الرحلات عبر العصور ونستعرض أهم الرحلات التي كان لها أثر بالغ في دعم وإثراء الدراسات التاريخية في العصر الوسيط والحديث كرحلة ابن جبير والطهطاوي أ نموذجا.

الكلمات المفتاحية: أدب الرحلة، ابن جبير ، الطهطاوي، المشرق العربي ، أوروبا .

Historical Value of Travel Books: the Journey of Ibn Jubayr and Tahtawi as a Model

Abstrract: The field of historical studies is a vast field that requires many sciences and knowledge to help provide the historian with historical truth. In this context, travel literature is an indispensable source which cannot be neglected in historical studies. Although it is literary color that includes the novel story and narrative, it is of great scientific value, especially because the travel book were based on observation and direct observation. It contained a lot of historical and geographical information which was overlooked by other sources and references. Travel book has divulged and revealed important aspects

of the current history of nations and peoples. From this point of view, this study focuses on the historical value of travel books and their role in enriching historical knowledge, hence, we will study the origin and stages of evolution of travel literature through the ages and evoke the most important trips that have had a significant impact on supporting the historical studies in the middle ages and modern times such as ibn jubair and tahtawi .

key words : travel literature, ibn jubair, tahtawi, arab orient ,Europe.

مقدمة :

تشكل كتابات الرحالة مصدرا هاما في الدراسات التاريخية نظرا لما تنطوي عليه من فوائد متعددة فأدب الرحلات قد أماط اللثام وكشف جوانب مهمة من تاريخ الشعوب سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، كما تضمن حقائق كثيرة أغفلتها المصادر والمراجع الأخرى ، ومن هذا المنطلق استقطبت كتابات الرحالة اهتمام الباحثين والمؤرخين الذين كرسوا جهودهم لدراستها وتحقيقها و الإستفادة من القيمة العلمية والتاريخية التي تتضمنها هذه الكتابات خاصة وأن أصحابها قد اعتمدوا في تدوينها على الملاحظة والمشاهدة المباشرة .

وبما أن الرحلة تندرج ضمن مظاهر الثقافة العربية فقد اهتم بها العرب منذ القدم ، فكثر التأليف فيها وشهدت تطورا كبيرا ، إذ تنوعت الرحلات بتعدد أهدافها وأغراضها المختلفة ، ولعل من أبرز الرحلات ذات القيمة العلمية الكبيرة نجد رحلة ابن جبير في العصر الوسيط ورحلة رفاعة رافعة الطهطاوي إلى باريس في العصر الحديث ، هاتين الرحلتين رغم اختلافهما في الأهداف والمقاصد إلا أنهما شكلتا الأساس والمنطلق الذي استند إليه الباحثون في كتاباتهم سواء في تقصي واقع المشرق العربي أو التعرف على مظاهر التطور الأوروبي .

وعليه جاءت دراستنا هذه لتركز على نشأة وتطور أدب الرحلات عند العرب مع إبراز القيمة التاريخية لكتابات الرحالة خاصة رحلتي كل من ابن جبير والطهطاوي ودورهما في دعم الدراسات التاريخية وذلك بالنظر لما تحمله هذه الرحلات من معطيات تاريخية في غاية الأهمية .

- **مفهوم الرحلة اللغوي والإصطلاحي**

تحمل كلمة الرحلة معاني متعددة ففي اللغة هي مأخوذة من الإرتحال ، يقال ارتحل البعير أي سار ومضى وارتحل القوم عن المكان أي انتقلوا والإرتحال بالضم يطلق على السفرة الواحدة [1] ، أما مفهومها الإصطلاحي لا يختلف كثيرا عن التعريف اللغوي فهما تقريبا يؤديان إلى نفس المعنى وهو الحركة والإنتقال من مكان لآخر ، فالرحلة سلوك إنساني عرفها

الإنسان منذ القدم وقد نوه الكثير من المؤرخين بأهميتها وفوائدها ، إذ يذكر ابن خلدون" أن الرحلة لابد منها في طلب العلم لإكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ..."[2] ، وجاء أيضا في كتابات أحد الفرنسيين في القرن الثامن عشر:"بأن الرحلات تشكل أكثر المدارس تثقيفا للإنسان"كونها تقوم على الاحتكاك ومخالطة الشعوب الأخرى من خلال التعرف على أخلاقهم وطباعهم[3].

بواعث الرحلات وأهميتها:

ترتبط الرحلة بتحقيق غاية وهدف ،وهو ما يجعل الرحالة يتحمل في سبيله المشاق والمصاعب ، فتعددت بذلك الدوافع والحوافز التي شجعت على ممارسة هذا النشاط فاختلفت من فرد لآخر ومن فترة لأخرى[4] ، فنجد في مقدمة هذه الدوافع الدافع الديني والذي يقترن أساسا بأداء مناسك الحج ، إضافة إلى الدوافع العلمية والتي كان الغرض منها اكتساب المعارف والإحتكاك بالعلماء ، كما شكلت الدوافع السياسية هي الأخرى أحد أهم بواعث الرحلة من خلال البعثات والوفود التي سعت إلى توطيد العلاقات بين الدول ، ويندرج أيضا ضمن البواعث الدافع التجاري حيث أدى تطور التجارة واتساعها إلى توسيع آفاق أدب الرحلة[5].

وتحفل كتب الرحلات بمعارف متنوعة وهذا ما أكسبها أهمية كبيرة ، فهي تعد سجل حقيقي تتجسد فيه مختلف الظواهر الإجتماعية ، فقد كانت عونا وسندا للمؤرخ والجغرافي والأديب وعالم الإجتماع ، وبما أن الرحالة قد تباينت أهدافهم وتفاوتت توجهاتهم الشخصية فقد أنتج لنا ذلك رصيدا معرفيا متنوعا[6] ومنه كان للرحلة قيمتين : قيمة أدبية وأخرى علمية ، فأما القيمة الأدبية فتتجلى في ما تزخر به هذه المدونات من عناصر أدبية متنوعة ، فهي تضم الرواية والسرد علاوة على القصة والحوار والوصف ما يفضي عليها تنوعا في الأسلوب ومتعة للمهتمين بها.

وأما القيمة العلمية لكتب الرحلات فتتمثل في أهمية ما أورده الرحالة من معلومات تاريخية وجغرافية وثقافية واقتصادية ساهمت في إماطة اللثام عن تاريخ المجتمعات ، وبالتالي عكست لنا المظاهر الحضارية والثقافات الإنسانية[7] ، والجدير بالذكر أن الرحلات قد قامت بتغطية جانب مهم من حياة الشعوب ألا وهو الحياة الاجتماعية والثقافية التي أغفلتها المصادر الأخرى ذكرها ، رغم أهميتها خاصة فيما يتعلق بالعادات والتقاليد والحياة اليومية ، وما زاد في أهمية كتب الرحلات هو أن الرحالة قد استقى تلك الحقائق والمعلومات عن طريق الإتصال المباشر والملاحظة الدقيقة لمختلف الظواهر الاجتماعية للبلدان التي زاروها ، وعليه شكلت كتابات الرحالة مصدرا هاما للمؤرخ إذ لايمكن الإستغناء عنها بالنظر للخدمات الجليلة التي قدمها هذا النوع من الكتابات للدراسات التاريخية على مر العصور[8].

نشأة وتطور أدب الرحلات عند العرب :

أولى الباحثون أدب الرحلات اهتماما كبيرا وأسهبوا في الحديث عن مكانته وعلى ما يحتويه من معارف مختلفة ، حيث عرفه البعض على أنه لون أدبي له خصائصه وأهدافه يعنى بتسجيل ورصد كل المشاهد والإنطباعات التي صادفها الرحالة أثناء رحلته بأسلوب يعتمد بالدرجة الأولى على التشويق القصصي ، علاوة على الدقة في الوصف ، فالرحلة في نظر الباحثين هي أقرب إلى المذكرات التي يصف فيها صاحبها الأحداث التي شاهدها أو سمع عنها جراء اتصاله المباشر بالأقوام ، وبطبيعة الحال فإن هذه المدونات تحمل معارف جغرافية وتاريخية وإثنوغرافية تعكس لنا جوانب مهمة عن واقع الكثير من الشعوب[9] .

والمتتبع لنشأة هذا النوع من الدراسات يجد أن العرب قد عرفوه منذ القدم ، فقد اشتهروا برحلة الشتاء والصيف ،كما حث القرآن الكريم في الكثير من آياته على أهمية الرحلة نذكر من ذلك قوله تعالى "**قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين** "[10]وقوله أيضا "**هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور**"[11]وهذه دعوة صريحة للسير والتنقل[12] . فبعد حركة الفتوحات واتساع رقعة الدولة الإسلامية نشطت الرحلة بشكل ملحوظ ، وبالأخص في القرنين الثالث والرابع هجري ،حيث ارتبط ذلك بحاجة الدولة إلى معرفة المسالك والممالك المجاورة[13] ، مما أدى إلى ظهور العديد من المصنفات التي كانت الرحلة منطلقا لها ، وهنا تجدر الإشارة إلى أن أصحاب هذه المصنفات كان أغلبهم من الجغرافيين الذين قدموا خدمات جليلة في رصد أحوال البلاد الإسلامية[14] نذكر منهم: "اليعقوبي والبلاذري والإصطخري والمسعودي وابن حوقل والمقدسي "وغيرهم كثير[15] .

وإذا كانت كتابات الرحالة قد شهدت تطورا في القرنين الثالث والرابع هجري ، فإنها عرفت تحولا كبيرا في أواخر القرن السادس هجري ، إذ أصبح من أهم سماتها بروز الطابع الأدبي الذي أفضى عليها تنوعا في الأسلوب ، ومن أبرز رحالة هذه الفترة نذكر الإدريسي[16] وكتابه :"نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" إضافة إلى" أبي بكر العربي" الذي يعد من الأوائل الذين أطلقوا على مصنفاتهم تسمية الرحلة . غير أن المتفق عليه من طرف المؤرخين أن ابن جبير هو الرحالة الذي اكتملت على يديه الملامح الأساسية لأدب الرحلات باعتبار أن رحلته اتسمت بقمة التطور الأدبي وأصبحت مرجعا لكثير من الرحالة الذين جاؤوا بعده[17] ، فبعد رحلة ابن جبير ظهرت العديد من الرحلات المهمة كرحلة ابن خلدون ورحلة ابن بطوطة هذه الأخيرة اكتسبت قيمة علمية كبيرة كونها ساهمت في اثراء الدراسات التاريخية والجغرافية[18] .

إن التنوع الذي شهدته كتابات الرحالة العرب في العصر الوسيط إن دل على شيء فإنه يدل على تفوقهم في هذا المجال هذا التفوق الذي سرعان ما سوف يختفي مع بداية

العصر الحديث جراء التحولات الكبرى التي شهدتها أوروبا خاصة بعد حركة الكشوف الجغرافية والنهضة الأوروبية ، الأمر الذي أثر سلبا على الحياة الثقافية في البلاد العربية التي امتازت بالركود ، وبالتالي فقد اقتصرت حركة التأليف على بعض الرحلات القليلة فقط بالمقابل نشطت حركة التأليف لدى الغرب الذين عكفوا على دراسة تراث الشرق وترجمته والاستفادة منه[19].

وعقب حالة الركود التي شهدتها الحياة الثقافية خلال القرن 15م ، انتعشت الحياة العلمية ابتدءا من القرن التاسع عشر الذي تزامن مع النهضة العربية ، وقد انعكس ذلك بالإيجاب على تدوين الرحلات التي نشطت من جديد ، غير أنها أخذت طابعا مختلفا فميزة الرحلة في هذه الحقبة تمثلت في تغير وجهة الرحالة ،فبعد أن كان المشرق هو الوجهة المفضلة للرحالة أضحت أوروبا المقصد الأول ، ويعود ذلك إلى احتكاكهم بالغرب وتأثرهم بمظاهر التطور الذي شهدته هذه الأخيرة ، وقد نتج عن رحلات العرب إلى أوروبا الكثير من المؤلفات التي ساهمت في كشف الغموض عن الحضارة الغربية ، ولعل من أبرز ما وصلنا كتاب : **تخليص الإبريز في تلخيص باريس"** ل: رفاعة رافع الطهطاوي والذي تجسدت فيه صورة أوروبا بالإضافة إلى كتاب : **"أقوم المسالك في معرفة أحوال والممالك"** لخير الدين التونسي[20].

وإذا ما أردنا إبراز القيمة التاريخية لكتب الرحلات كان لزاما علينا أن نقف عند بعض النماذج من الرحالة الذين كانت كتاباتهم مرجعا قيما للكثير من المؤرخين الذين عكفوا على دراستها والأخذ منها والتنويه بدورها المهم في بعث الدراسات التاريخية وتطورها ، ولعل الأمر يتعلق بالدرجة الأولى بأهم رحلتين عرفهما العرب هما: رحلة ابن جبير ورحلة " رفاعة رافع الطهطاوي"

ففي البداية سنسلط الضوء على رحلة ابن جبير كونها اكتسبت أهمية بالغة لدى المؤرخين باعتبار أن أدب الرحلات قد اكتملت أسسه ومبادئه على يد هذا الرحالة الأندلسي .

1-رحلة ابن جبير وقيمتها التاريخية :

التعريف بصاحب الرحلة :

هو أبو الحسن مُحَمَّد ابن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي ، ولد ببلنسية في حوالى سنة 540هـ، 1145م ،تلقى تعليمه على يد العديد من العلماء في الأندلس والمغرب[21] ،اشتهر بثقافته الواسعة في العلوم الشرعية والنقلية وبالأخص الأدب الذي برع فيه ، إذ يذكر المؤرخون أنه كان أديبا وشاعرا مجيدا ، ونظرا لشهرته الكبيرة استدعاه أمير غرناطة أبو عثمان سعيد ابن عبد المؤمن وعينه كاتبا في ديوانه لمدة سنتين[22] بعدها قام ابن جبير بعدة رحلات إلى المشرق ، غير أن رحلته الأولى قد نالت شهرة كبيرة باعتبار أنه دون تفاصيلها وزار

العديد من المناطق في فترة تزامنت مع الحروب الصليبية على العالم الإسلامي ، وقد انصب اهتمام المؤرخين على دراستها بالنظر لما احتوته من معلومات دقيقة عن هذه الفترة الحرجة من تاريخ العالم الإسلامي علاوة على الأسلوب الأدبي الرفيع الذي زاد من أهميتها وقيمتها .

وصف رحلة ابن جبير :

إن المتأمل في تاريخ الرحلات العربية في العصر الوسيط يجد أنها لم تقتصر على الرحالة المشارقة فحسب بل كان للمغاربة والأندلسيين بالأخص الفضل الكبير في بروز هذا النوع من المعرفة وتطوره ، وإذا حاولنا معرفة دوافع عنايتهم بالرحلة وتدوينها فإنها تتمثل في انعدام الحدود السياسية بين الأقطار العربية وتوفر المواصلات البرية والبحرية ،حيث كان المشرق الإسلامي أكثر المناطق التي استقطبت الرحالة المغاربة والأندلسيين فأداء مناسك الحج وزيارة الأماكن المقدسة والنهل من منابع العلم شكل أبرز دوافع اهتمامهم بتدوين الرحلة التي انفردت بطابع خاص واختلفت في خصائصها عن رحلات المشارقة[23].

وتندرج رحلة ابن جبير ضمن الرحلات الأندلسية التي تركت أثرا قويا ساهم في تطور أدب الرحلة ، فالغرض الأول من رحلته إلى المشرق الإسلامي هو أداء مناسك الحج [24] ، فقد ابتدأ مسار رحلته من الأندلس في 8 شوال 578 هـ الموافق ل: 1183م حيث استغرقت هذه الرحلة أكثر من سنتين فبعد أداء فريضة الحج زار العديد من المناطق العربية كمصر وبلاد الشام والعراق[25] .

وبالتالي فقد ارتبطت شهرة ابن جبير بكتابه الذي دون فيه تفاصيل رحلته ، حيث اختلف المؤرخون في تسميتها إذ يذكر حاجي خليفة أن الرحلة تحمل اسم مؤلفها أي : رحلة الكناني " ، وهناك من أرجع تسميتها في "اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك "وعلى ما يبدو أن هذه التسمية تعود لكتاب آخر لابن جبير غير الرحلة وفي الغالب أن الرحلة قد حملت عنوان: "**تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار**"[26] .

وجاءت هذه الرحلة على شكل مذكرات يومية استخدم فيها ابن جبير التاريخ الهجري والميلادي كما حرص على وصف البلاد الإسلامية وصفا دقيقا خاصة الأحوال الاقتصادية والاجتماعية فنجده يركز على المدن ومعالمها الدينية ، والملاحظ أيضا أن ابن جبير قد تجنب في رحلته التطرق إلى العجائب والغرائب التي عمد الرحالة الذين سبقوه إلى إدراجها في كتاباتهم ، ضف على ذلك اتسمت رحلته بالصبغة الأدبية التي تجسدت في جمالية الأسلوب بحيث أورد في رحلته السجع والمحسنات البديعية وهذا ما لم يتوفر في الرحلات التي سبقت عهده ما أكسب الرحلة أهمية بالغة لدى المستشرقين الذين قاموا بترجمتها إلى العديد من اللغات[27]

القيمة التاريخية لرحلة ابن جبير :

تزامنت رحلة ابن جبير مع فترة مهمة من تاريخ العالم الإسلامي وهي فترة الحروب الصليبية مما أكسب هذه الرحلة أهمية بالغة فقد اشتملت على معلومات دقيقة غطت هذه الفترة ، فابن جبير قام برصد الأحوال السياسية والاقتصادية والنظم الاجتماعية للمشرق الإسلامي في القرن السادس هجري معتمدا في ذلك على الملاحظة الدقيقة فاتسمت رحلته بدقة الوصف وصدق الرواية ما جعلها مصدرا أساسيا لا يستغني عنه المؤرخ[28].

وتتجلى القيمة التاريخية لرحلة ابن جبير في ما احتوته من تصوير لجوانب مهمة من تاريخ المجتمع الإسلامي فكانت عنايته فائقة بوصف المدن التي مر بها خاصة ما تعلق بالمرافق و المعالم الأثرية و الدينية والمدارس والحصون علاوة على ذكر علمائها وأوليائها بأسلوب أدبي راق [29] ، ففي وصفه لمدينة حلب يذكر :**أنها بلدة قدرها خطير وذكرها في كل زمان يطير، خطابها من الملوك كثير ومحلها من التقديس أثير** ..."أما دمشق فجاء وصفه لها كالآتي: "**دمشق جنة المشرق ومطلع حسنه المؤنق المشرف وهي خاتمة البلاد التي استقريناها وعروس المدن التي اجتلیناها ،قد شملت بأزاهير الرياحين وتجلت في حلل سندسية من البساتين**"[30].

كما اهتم بن جبير بالمشهد الديني من خلال تركيزه على وصف قوافل الحج ومشاعره ، إذ بين جل تفاصيله بحيث تطرق إلى الضرائب التي كان يدفعها الحجاج لشريف مكة مقابل الخدمات التي وفرها لهم ، ولم يغفل في رحلته هذه التطرق أيضا إلى الواقع الإقتصادي فقام بتصوير العلاقات التجارية بين المسلمين والمسيحيين إبان الحروب الصليبية ،كما سلط الضوء على الضرائب والسلع والصناعات في تلك الفترة[31] ،وتكمن قيمة الرحلة أيضا في تصويرها لجوانب مهمة من حياة المسلمين في صقلية التي زارها أثناء عودته فوقف على مظاهر الحضارة الإسلامية فيها[32] ، ونجد ابن جبير في رحلته يستشهد بآيات قرآنية وأحاديث نبوية ويصدر العديد من الأحكام علاوة على المدح والذم للحكام [33] فكان صلاح الدين الأيوبي من بين الذين أثنى عليهم ابن جبير في رحلته نظرا لموقفه واهتمامه بعابري السبيل ومنهم المغاربة فبين لنا صفاته وأهم مآثره وأعماله الجليلة[34].

وعليه فإن التنوع الذي اتسمت به رحلة ابن جبير جعل منها نموذجا استند إليه معظم الرحالة الذي جاؤوا بعده نظرا للقيمة العلمية والأدبية التى احتوت عليها ، كما أضحت مرجعا أساسيا للمؤرخين والأدباء المهتمين بتقصي واقع المشرق العربي في القرن الثاني عشر ، فهذه الرحلة كانت مرآة عاكسة لأوضاع البلاد الإسلامية في فترة أقل ما يمكن القول عنها أنها فترة حرجة ،فساهمت في أماطة اللثام وكشف جوانب مهمة من تاريخ العالم العربي .

وإذا كانت رحلة ابن جبير شكلت المنطلق الذي اسندت عليه الدراسات التاريخية في العصر الوسيط فإن العصر الحديث قد شهد نموذجا أخر من الرحلات العربية التي اتخذت صبغة أخرى ، جراء التحولات التي شهدتها الحركة الثقافية في القرن التاسع عشر فمن

المؤثرات التي ساهمت في تغير طابع الرحلة في هذه الفترة هو احتكاك العرب بالغرب الأوروبي من خلال الحملة الفرنسية على مصر ، إضافة إلى عوامل أخرى أبرزت مظاهر الحضارة الأوروبية ماساهم في تغير وجهة الرحالة العرب من المشرق إلى أوروبا التي أصبحت مقصد للعديد منهم وتكتسي رحلاتهم هذه أهمية كبيرة كونها عكست وكشفت صورة الطرف الآخر ونظمه السياسية والإجتماعية والإقتصادية الأمر الذي أدى إلى إثراء الدراسات التاريخية ، ولعل من أهم الرحلات العربية الى أوروبا نجد رحلة الطهطاوي إلى باريس الذي دون جل انطباعاته في كتابه "**تلخيص الإبريز في تخليص باريس**" فنقل صورة الغرب وحضارته إلى الشرق فشكلت بذلك كتاباته أهمية بالغة لدى الباحثين

2- رحلة رفاعة رافع الطهطاي وقيمتها التاريخية :

التعريف بصاحب الرحلة :

ولد الطهطاوي بمدينة طهطا في محافظة سوهاج في سنة 1801م ، وهو العام الذي خرجت فيه الحملة الفرنسية من مصر ، تلقى الطهطاوي تعليمه الأولي في صعيد مصر ،وفي عام 1817م انتقل إلى القاهرة والتحق بالأزهر الشريف أين تتلمذ على يد الكثير من المشايخ من أبرزهم حسن العطار فشملت دراسته علوم الحديث والفقه واللغة والنحو والصرف ، وبعد تخرجه سنة 1821م زاول مهنة التدريس بالأزهر غير أنه ابتداء من سنة 1826 ارتحل إلى باريس التي دامت إقامته فيها خمس سنوات [35].

وصف رحلة الطهطاوي إلى باريس

أخذت رحلة الطهطاوي إلى أوروبا طابعا خاصا واكتسبت أهمية كبيرة لدى المؤرخين باعتبارها جسدت أولى الرحلات العربية إلى باريس ، فرحلة الطهطاوي اختلفت دوافعها عن دوافع الرحلات الأخرى فجاءت ضمن المهمة التي أوكلت إليه من طرف والي مصر أنذلك "مُحَمَّد علي[36] الذي عهد إليه إمامة البعثة العلمية إلى باريس ، وتندرج هذه البعثة في إطار مشروع بناء دولة حديثة ، وكان لرحلته أثر كبير في تكوين شخصيته إذ عكف في خمس سنوات التي قضاها في فرنسا على دراسة اللغة الفرنسية والتاريخ والآداب على يد نخبة من العلماء الفرنسيين من أمثال : "جومار وسلفستر دي ساسي" ، كما تأثر بأفكار التنوير التي سادت في تلك الفترة خاصة أفكار كل من "مونتسكيو وجون جاك روسو"[37] ، ما جعله يترجم أكثر من اثنى عشر عملا بين مقال ورسالة وكتاب[38] ، كما دون كتابه تلخيص الإبريز في تلخيص باريس (**الديوان النفيس بإيوان باريس**) الذي اجتاز به الإمتحان سنة 1830م ، والذي أبرز فيه انطباعاته وملاحظاته لمختلف الظواهر في المجتمع الفرنسي خاصة ما تعلق بمظاهر التطور التي انبهر بها إذ شملت مختلف المجالات[39]

ونلمس في رحلته هذه محاولته إبراز الفرق الشاسع بين الغرب الأوروبي والشرق الإسلامي الذي يعرف ركودا فكانت كتاباته حافزا للعرب من أجل النهوض والإصلاح وتحقيق التطور

الذي لا يتأتى في نظره إلا من خلال الاقتباس والأخذ من العلوم الغربية والنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وعلى هذا الأساس كانت رحلة الطهطاوي إلى فرنسا من أهم الرحلات التي كان لها انعكاسات إيجابية على واقع العالم العربي في العصر الحديث ،إذ عكف المؤرخون على دراستها من مختلف الجوانب كونها عكست صورة باريس ومظاهر التطور الأوروبي في العصر الحديث [40]

القيمة التاريخية لرحلة الطهطاوي :

إن المتمعن في كتاب الطهطاوي" **تلخيص الإبريز في تخليص باريس"** ، يجده يتمتع بقيمة تاريخية وعلمية كبيرة فهو يورد لنا سمات المجتمع الفرنسي من عادات وتقاليد و آداب ونظم سياسية واقتصادية واجتماعية والتي تعكس درجة التطور التي بلغها الغرب الأوروبي في تلك الفترة[41] والملاحظ على كتابه أنه ركز على وصف مدينة باريس بالأخص ، فتناول أصل تسميتها وجغرافيتها وأبعادها وأهم مظاهرها الطبيعة ،علاوة على ذلك أسهب في وصف عادات أهلها وطبائعهم في المأكل والملبس[42] ، فقد أبرز خصائص سكانها بحيث تجلى ذلك في قوله "**إن الباريزين يختصون من بين كثير من النصارى بذكاء العقل ودقة الفهم وغوص ذهنهم في الغويصات وليسوا مثل النصارى القبطة في أنهم يميلون إلى الجهل والغفلة وليسوا أسراء التقليد أصلا بل يحبون دائما معرفة أصل الشيء والاستدلال عليه حتى أن عامتهم يعرفون القراءة والكتابة ويدخلون مع غيرهم في الأمور العميقة** "[43]، واستناد لهذا القول يتجلى للباحثين معرفة صورة و مميزات المجتمع الفرنسي عن غيره من المجتمعات الأوروبية ، ولعل من أهم القضايا الأخرى التي أوردها الطهطاوي عن المجتمع الفرنسي في كتابه نجد قضية المرأة الأوروبية والمكانة المرموقة التي كانت تتمتع بها في المجتمع الفرنسي ففي هذا السياق ركز الطهطاوي على وصف الحرية التي كانت تتمتع بها ، إذ صور مظهرها ومحاسنها ،كما استنكر في نفس الوقت العادات المذمومة التي اتسمت بها المرأة الفرنسية خصوصا ما يتعلق بقلة العفاف وكثرة اختلاطهن بالرجال فهذة العادات في نظر الطهطاوي تتنافى وتتعارض مع مبادئ الشريعة الإسلامية [44]

وتستمد رحلة الطهطاوي المدونة أيضا قيمتها التاريخية من المعلومات التي أفادت المؤرخين خاصة في ما يتعلق بالمشهد السياسي ، حيث وصف لنا في رحلته الثورة الفرنسية التي أطاحت ب: شارل العاشر سنة 1830م وأهم أسبابها ونتائجها ، وإضافة إلى هذا قام الطهطاوي بترجمة العديد من مواد الدستور الذي أثار اهتمامه وإعجابه بما أنه يدعوا إلى الحرية والمساواة [45].

لقد حاول الطهطاوي في رحلته إبراز الأسس التي تقوم عيلها الدولة الفرنسية وذلك من خلال تخصيصه لحيز مهم للنظام الفرنسي فقد وصف الدواوين التي تساهم في تسيير شؤون الدولة منها ديوان الدولة الذي يضم الملك والوزراء وأهل المشورة وديوان رسل العمالات

الذي يكمن دوره في الدفاع عن الرعية وأما الديوان الأخير فهو ديوان " البير " الذي تتمثل مهمته في معارضة قرارات الملك وقد نوه الطهطاوي بأهمية هذه النظم السياسية الموجودة في فرنسا ودورها في تحقيق التقدم [46]

ولم يقتصر وصف الطهطاوي على المشهد السياسي فحسب بل أعطى صورة شاملة عن الحياة العلمية في فرنسا وأهم عوامل تقدمها فقد أورد خصائص المراكز التعليمية وأشاد باهتمام الفرنسين بالعلوم المختلفة خاصة العلوم الطبية[47] وهو في هذا السياق يذكر: "**أن مدينة باريس هي أعظم مدن الإفرنج التي يرتحل إليها الغرباء لتعلم العلوم خصوصا العلوم الطبية وقد ينتقل إليها المرضى من بعيد للبحث عن تداويهم فيها** " [48] وبما العلوم الطبية قد عرفت انتشار في فرنسا فإنها تفرعت إلى عدة أصناف من بينها التشريح والجراحة الطبية والكمياء العقاقيرية ، ولعل من أهم المدارس التي اهتمت بالطب نجد مدرسة ديوان الحكماء السلطانية[49] التي عرفت تطورا كبيرا .

لقد أماط الطهطاوي اللثام عن جانب مهم من تاريخ المجتمع الفرنسي ، فالملاحظ على الطهطاوي في وصفه لملامح التطورفي المجتمع الفرنسي أنه كان يلجأ إلى استخدام منهج المقارنة بين تلك المشاهد مع ماهو سائد في مصر وهذه المقارنة تعكس الفرق الشاسع بين العالم الأوروبي المتطوروالعالم الإسلامي الذي كان يشهد ركودا شمل مختلف المجالات [50]،وعليه فإن الطهطاوي كان حريصا في الدعوة إلى الإصلاح الذي لا يتأتى في نظره إلا من خلال النهضة وبالتالي تبرز قيمة هذه الرحلة التي لم تكشفت مظاهر التطور لدى الغرب فحسب ،بل ساهمت مساهمة فعالة في نشر الوعي لدى العرب الذين أدركوا بعد اطلاعهم على الرحلة مكامن الضعف ما دفع بهم إلى محاولة النهوض ومواكبة التطور من خلال الاقتباس من النظم الأوروبية السياسية والاقتصادية والاجتماعية وهذا ما سيشهده القرن التاسع عشر فيما يسمى بالنهضة العربية .

خاتمة :

بناء على ماسبق يمكن القول أن رحلة كل من ابن جبير والطهطاوي تعد من أهم المصادر التي ساهمت في دعم وإثراء الدراسات التاريخية ،فرغم الإختلاف الموجود بين الرحلتين والذي يشمل الفترة الزمنية و المنطقة التي وصفها الرحالة ، إلا أنه لايمكن أن نغفل ما تضمنته من معطيات تاريخية متنوعة.

فرحلة ابن جبير غطت فترة مهمة من تاريخ العالم الإسلامي وهي الفترة التي تزامنت مع الحروب الصليبية ، فااشتملت الرحلة على وصف ملامح الحياة السياسية وعلاقة المسلمين بالمسيحيين إضافة إلى رصد الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية ،وهذه الجوانب لم تزودنا المصادر الأخرى بمعلومات وافية عنها ،في حين أن رحلة رفاعة رافع الطهطاوي قد مثلت نموذجا آخر من الرحلات خصوصا وأنها عنيت بوصف الطرف الآخر أي المجتمع الأوروبي

ونظمه السياسية والإقتصادية والإجتماعية ،فجاءت رحلته لتبين مظاهر التطور الأوروبي في العصر الحديث والفرق الشاسع بينه وبين العالم الإسلامي ،الأمر الذي انعكس ايجابا على مصر من خلال دعوة الطهطاوي إلى تحقيق النهضة بعد أن فتحت هذه الرحلة المجال للكثير من الرحالة لزيارة أوروبا وتدوين ملاحظاتهم وانطباعاتهم وهو ما سمح بتكوين صورة شاملة عن ملامح الحياة السياسية والإقتصادية والإجتماعية وعليه فإن كتابات الرحالة قد شكلت مصدرا مهما لايمكن للباحث الإستغناء عنها كونها سدت الفراغ الناجم عن قلة الدراسات عن العالم الإسلامي في فترة الحروب الصليبية والغرب الأوروبي في العصر الحديث خاصة وأن هذه الرحلات قد استندت إلى التجربة الشخصية والملاحظة المباشرة وهو ما يبرز أهميتها في الدراسات التاريخية .

الهوامش:

1 محي الدين مُحَمَّد بن يعقوب الفيروز أبادي ، **القاموس المحيط** ، تح: أنس مُحَمَّد شامي ، دار الحديث ، القاهرة ، 2008م ، ص626.

2 أنساعد سميرة ، **الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري :دراسة في النشأة والتطور والبنية** ، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب ، كلية الأداب واللغات ، جامعة الجزائر 2007 ،ص ص14 ،13.

3- حسين مُحَمَّد فهيم ، **أدب الرحلات** ، عالم المعرفة ، 1989م .ص 18.

4 تقوى سليمان ذياب ، **أدب الرحلة في العصر العباسي في القرنيين الرابع والخامس هجري** ، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجيستير في اللغة العربية وأدابها ، إشراف : عبد الجليل عبد المهدي ، جامعة اليرموك ، 2006م ، ص 6.

5 فؤاد قنديل ، **الرحلة في التراث العربي** ،مكتبة الدار العربية للكتاب ، 2002م ،ص ص 19-20.

6 الجوهرة بنت عبد الرحمن المنيع، **الرحلات العربية مصدر من مصادر تاريخ المملكة العربية السعودية :1920-1953م** ، الرياض ، 2010 ، ص 31.

7 حسني محمود حسين ، **أدب الرحلة عند العرب** ، ط 2 ، دار الأندلس ، لبنان ، 1983م ، ص ص6 ،8

8 عبد القادر خليفي ، **الرحلات بين المشرق والمغرب وقيمتها التاريخية** " محلة المواقف :الدراسات والبحوث في المحتمع والتاريخ ، العدد 4 ، معسك ، 2009 ، ص 120.

9 الجوهرة بنت عبد الرحمن المنيع ، المرجع السابق ، ص ص26 -27.

10 سورة الأنعام ، الآية 11.

11 سورة الملك ، الآية 15.

12 فؤاد قنديل ، المرجع السابق ، ص 29.

13 جمال الدين الكيلاني ، **الرحلات والرحالة في التاريخ الإسلامي دراسة تاريخية** ، دار الزنبقة ، مصر ، 2014 ، ص40.

14 شوقي ضيف ، **الرحلات** ، ط 4 دار المعارف ، مصر ، دت ، ص ص 12 ،11.

15 فؤاد قنديل ، المرجع السابق ،ص ص 74 ،72.

16 الإدريسي: هوأبو عبد الله بن مُحَمَّد بن عبد الله الحمودي الحسني ولد في سنة 1100 م بمدينة سبتة ، تلقى تعليمه بمدينة قرطبة ،يعد من أهم الجغرافيين العرب في القرن الثاني عشر حيث زار العديد من

المناطق كمصر والأناضول والمغرب ، استقر في صقلية حوالي سنة 1116م وأصبح من حاشية الملك روجر الثاني. أنظر: فؤاد قنديل ، المرجع السابق ، ص ص 339 ،338.

17 فؤاد قنديل ، المرجع السابق ، ص 75.

18 حسني محمود حسين ، المرجع السابق ،ص14.

19 حسني محمود حسين ، المرجع السابق ،ص ص 15 ،14.

20 أنساعد سميرة ، المرجع السابق ، ص ص26 ،27.

21 أبي الحسين مُحَمَّد ابن أحمد ابن جبير ، **رحلة ابن جبير** ، دط ، دت ،ص 5

22 ناصر الدين سعيدوني ، **من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي** : تراجم مؤرخين ورحالة جغرافيين ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1999م ، ص 82.

23 عبد اللطيف مومن ، **رحلات الأندلسيين نحو المشرق مقياس الإستيعاب المعرفي والأصالة الثقافية بالأندلس** ، ندوة أدب الرحلة والتواصل الحضاري ن كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة المولى اسماعيل ، مكناس ، 1993م ، ص 274.

24 إن الدافع الذي كان وراء قيام ابن جبير بهذه الرحلة هو محاولته التكفير عن ذنب اقترفه عندما كان كاتبا لدى الأمير الموحدي وقد تمثل الذنب في شربه للخمر في احدى الجلسات فقرر التوبة عن ذنبه من خلال أداء مناسك الحج للمزيد أنظر: ابي الحسين مُحَمَّد ابن أحمد ابن جبير ، المصدر السابق ، ص ص 6 ،5.

25 كمال بن مُحَمَّد الريامي ،**مشاهير الرحالة العرب** ،ط1 ، كنوز للنشر والتوزيع ، مصر ، 2013م ، ص 69.

26 ابراهيم كردي ، **أدب الرحل في المغرب والأندلس** ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، دمشق ، 2013م ،ص 33.

27 فؤاد قنديل ، المرجع السابق ، ص ص ، 389-391.

28 ناصر الدين سعيدوني ، المرجع السابق ، ص ص85 ، 86.

29 حسين مُحَمَّد فهيم ، المرجع السابق ، ص 14.

30 أبي الحسين مُحَمَّد ابن أحمد ابن جبير ، المصدر السابق ، ص ص 177 ، 182.

31 ابراهيم كردي ، المرجع السابق ، ص 34.

32 حسني محمود حسين ،المرجع السابق ، ص29.

33 عواطف مُحَمَّد يوسف نواب ، **الرحلات المغربية والاندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنيين السابع والثامن هجري ، دراسة تحليلية مقارنة** ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض ، 1996م ،ص 106.

34 حسين نصار ، **أدب الرحلة** ، ط1 ، الشركة المصرية العالمية للنشر لنجمان ، لبنان ،1991م ، ص ص8 ،7.

35 صلاح زكي أحمد، **أعلام النهضة العربية في العصر الحديث** ، ط1 ، مركز الحضارة العربية ، القاهرة ، 2001م ، ص24 ،23.

36 مُحَمَّد علي : 1770 ، 1849م ، هو والي مصر من أصل ألباني قدم الى مصر كقائد عسكري للتصدي الى الحملة الفرنسية ،يعد المؤسس الأول لدولة مصر الحديثة بعد قيامه بإصلاحات عسكرية وسياسية واقتصادية شارك في حرب اليونان وساند الدولة العثمانية في القضاء على الحركة الوهابية في الحجاز

..للمزيد أنظر : خير الدين الزركلي :**الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين** ، ج 6، ط15، المكتبة العصرية ،لبنان ، 2002، ص 294.

37 ألبرت حوراني ، **الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939م** ، دار النهار للنشر والتوزيع ، لبنان ، 1968م ،ص 92.

38 صلاح زكي أحمد ، المرجع السابق ، ص 25.

39 مُحَمَّد عمارة ، **رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث** ، ط1، دار الشروق ، مصر ،2007، ص120.

40 نازك سابايارد ، **الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة** ،ط2، دار نوفل ،1992م ، ص22.

41 ألبرت حوراني ، المرجع السابق ، ص 93.

42 حسني مُحَمَّد حسين ، المرجع السابق ، ص 71.

43 رفاعة رافع الطهطاوي ، **تلخيص الإبريز في تخليص باريس** ، مؤسسة هنداوي ، مصر ، 2012م ، ص 73، 74.

44 رفاعة رافع الطهطاوي ، المصدر السابق ، ص 90، 88.

45 نازك سايابارد ، المرجع السابق ،ص 28.

46 رفاعة رافع الطهطاوي ، المصدر السابق ، ص 105.

47 حسني مُحَمَّد فهيم ، المرجع السابق ،ص 75

48 رفاعة رافع الطهطاوي ،المصدر السابق ،ص 143.

49 رفاعة رافع الطهطاوي ،المصدر السابق ، ص 145.

50- حسين مُحَمَّد فهيم ، المرجع السابق ، ص 77

قائمة الببليوغرافيا:

المصادر:

-أبو الحسين مُحَمَّد ابن أحمد ابن جبير ، **رحلة ابن جبير** ، دط ، دت .

-الطهطاوي رفاعة رافع ، **تخليص الإبريز في تخليص باريز** ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، مصر ، 2012م.

المراجع :

1- أحمد زكي صلاح ، **أعلام النهضة العربية في العصر الحديث** ، ط1، مركز الحضارة العربية ، القاهرة ، 2001م .

2-حسين حسني محمود ، **أدب الرحلة عند العرب** ، ط2، دار الأندلس ،لبنان ، 1983م.

3- حوراني ألبرت ، **الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939م** ، دار النهار للنشر والتوزيع ، لبنان ، 1968م.

4-الزركلي خير الدين ،**الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين** ،ج 6، ط15، المكتبة العصرية ،لبنان ، 2002

5 -الريامي كمال بن مُحَمَّد ، **مشاهير الرحالة العرب** ،ط1، كنوز للنشر والتوزيع ، مصر ، 2013م.

6- سابايارد نازك ، **الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة** ،ط2، دا نوفل ،1992م

7- سعيدوني ناصرالدين ، **من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي** : تراجم مؤرخين ورحالة جغرافيين ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ،1999.
8- ضيف شوقي ، **الرحلات** ، ط 4 دار المعارف ، مصر .
9-عبد الرحمن المنيع الجوهرة ، **الرحلات العربية مصدر من مصادر تاريخ المملكة العربية السعودية** 1920-1953م ، الرياض ، 2010 ، ص ص26 -27.عات الملك فهد ، الرياض ، 1996م 1983م.
10- عمارة مُحَمَّد ، **رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث** ، ط1 ، دار الشروق ، مصر ، 2007.
11-فهيم حسين مُحَمَّد ، **أدب الرحلات** ، عالم المعرفة ، 1989م
12-الفيروز أبادي محي الدين مُحَمَّد بن يعقوب ، **القاموس المحيط** ، تح: أنس مُحَمَّد شامي ، دار الحديث ، القاهرة ، 2008م.
13- قنديل فؤاد ، **الرحلة في التراث العربي** ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، 2002م.
14- كردي ابراهيم، **أدب الرحل في المغرب والأندلس** ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، دمشق ، 2013.
15- الكيلاني جمال الدين ، **الرحلات والرحالة في التاريخ الإسلامي دراسة تاريخية** ، دار الزنبقة ، مصر ، 2014.
16-مُحَمَّد يوسف نواب عواطف ، **الرحلات المغربية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنيين 7و8 هـ دراسة تحليلية مقارنة** ،مطبوعات الملك فهد ، الرياض.
17-مومن عبد اللطيف، **رحلات الأندلسيين نحو المشرق مقياس الإستيعاب المعرفي والأصالة الثقافية بالأندلس** ، ندوة أدب الرحلة والتواصل الحضاري ن كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة المولى اسماعيل ، مكناس ، 1993م.
18_ نصار حسين ، **أدب الرحلة** ، ط1 ، الشركة المصرية العالمية للنشر لنجمان ، لبنان ،1991م .

الرسائل الجامعية :

1- أنساعد سميرة ، **الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري :دراسة في النشأة والتطور والبنية** ، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب ، كلية الأداب واللغات ، جامعة الجزائر 2007م.
2-سليمان ذياب تقوى ، **أدب الرحلة في العصر العباسي في القرنيين الرابع والخامس هجري** ، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجيستير في اللغة العربية وأدابها ، إشراف : عبد الجليل عبد المهدي ، جامعة اليرموك ، 2006م.

المقالات :

- خليفي عبد القادر،" **الرحلات بين المشرق والمغرب وقيمتها التاريخية** " مجلة المواقف :الدراسات والبحوث في المجتمع والتاريخ ، العدد 4، معسكر ، 2009م.